

كريم مروة*

ظاهرة هاني فحص



نعش السيد هاني فحص ملفوفاً بالعلمين اللبناني والفلسطيني خلال تشييعه في بلدته جبشيت (تصوير نبيل إسماعيل)

فقيهاً عالماً بشؤونه بدقّة علمية وتاريخية
وباجتهاد هو حق من حقوقه مارسه
بشجاعة عن اقتناع كلي. وقد اختلف هو
وزملاؤه أولئك في المواقف الجريئة تلك عن
الجزء الأكبر ممّن يدعون المعرفة بالدين،
ويدعون النطق باسمه عن غير معرفة
حقيقية به وخلافاً تاماً لقيمه الإنسانية
الكبرى.

كان السيد هاني بفرادته المشار إليها
الأكثر جرأة والأكثر إقداماً والأكثر إصراراً

اكتسب السيد هاني فحص في
العقد الأخير من حياته
بصورة خاصة صفة الظاهرة التي قاداته
إليها مواقف جريئة خارقة للمألوف
والسائد، وكاد يكون فيها فريداً مع زملاء
له ممّن جاؤوا إلى الفكر العقلاني الحديث
باسم الدين الإسلامي الذي كان وإياهم فيه

* مفكر وكاتب لبناني، وعضو سابق في المكتب
السياسي للحزب الشيوعي.

لكن فكر السيد هاني لم يقف عند هذا الأمر وحده، بل ذهب ملياً وبعزم في البحث في كل ما يتصل بوظائف الدولة تأكيداً على حقوق المواطن في الحرية وفي العيش الكريم، ذلك بأن الإنسان في مفهوم السيد هاني هو القيمة الأولى والأساس على الكوكب الأرضي.

غير أن السيد هاني، باسم ما التزم به من قيم دينية ومدنية، كان مهموماً بكل ما يتصل بوطنه لبنان وباستقلاله وسيادته وحرية. وكان مقاوماً على طريقته وفي فهمه للمقاومة الحقيقية التي لم يرها قط بديلاً من الدولة، وإنما مكمل لها وداعماً عندما تقتضي الضرورة ذلك. فالدولة هي في نظره المسؤولة عن جميع شؤون البلد في الدفاع عن الاستقلال والسيادة، وفي تأمين شروط أفضل لحياة المواطنين. وباسم هذه الوطنية الصادقة كان السيد هاني وطنياً عربياً بامتياز، وكانت فلسطين عشقه وهمه الدائم. فكان مناضلاً على طريقته في صفوف مقاومتها، عاملاً بكل ما يملك من جهد وطاقة إلى جانب الشعب الفلسطيني من أجل تحقيق حلمه التاريخي بإقامة دولته الوطنية المستقلة على أرض وطنه فلسطين وعاصمتها القدس الشرقية. وبعبرية استثنائية استطاع أن يدمج في مواقفه وفي مجالات نشاطه الوطنية بين وطنيته اللبنانية ووطنيته العربية، ومن ضمنها عشقه الأبدي لفلسطين، فضلاً عن مواقف إنسانية أعطته صفة الأممية.

بهذه المعاني كلها صار السيد هاني فحس ظاهرة وطنية لبنانية وعربية. ولأنه مفكر فقد حشد جميع طاقاته الفكرية في هذا الميدان الذي اختاره منذ بواكير شبابه قبل أن يذهب إلى النجف وبعد أن عاد منها فقيهاً. وقد عاد من النجف حاملاً تراثاً

على تحرير الدين ممّا ألصق به وألحق وفُسّر وأوّل من مواقف غريبة عجيبه هجينة جعلته، أي الدين، بالتدريج عائقاً ثقيلاً أمام التقدم الإنساني بكل معانيه، ولا سيما ما يتصل بالتقدم من حقوق أساسية للإنسان الذي هو القيمة الأساسية في الوجود في جميع المعتقدات الدينية، وفي الأفكار المدنية الحديثة كافة.

وإذ أستذكر اليوم، وأنا أودعه، أحاديثنا خلال جلسات في منزله وفي أماكن أخرى كان الجدل الفكري المتحرر من الدوغمائية هو الطاغى فيها، وإذ أستذكر في الآن ذاته كتاباته وحواراته في شؤون الدين والدنيا وفي شؤون وطنه وفي شؤون الإنسان عامة، فإنني أستذكر فيه المفكر العقلاني المستنير المتميز بجرأته، الذي يقول ما كان واثقاً منه ومؤمناً به. وكان من أهم ما نطق به جهاراً أمام الدنيا، ومن دون حرج، هو أن الدولة المدنية هي الأساس في الأوطان، وأن لا دولة في الإسلام بالمعنى الذي يروّجه عن الدولة الإسلامية من يريدون فعلاً قمع حرية الفكر وحرية الرأي وحرية النشاط الإنساني لمصالح تخصصهم. فالدولة بالنسبة إليه هي الدولة المدنية المتعارف عليها في العالم الحديث، والفصل بين الدين والدولة هو، بالنسبة إليه، ضرورة تحمي الدين ممّا يعانيه ونعاني نحن جرّاءه في أيامنا من محن تمثل "داعش" ومثيالاتها مظهرها من المظاهر الوحشية التي تسيء إساءة بالغة إلى الدين وإلى قيمه. ومذهب السيد هاني في الدولة المدنية هو شبيه بما توصل إليه الإمام محمد مهدي شمس الدين في وصاياه الشهيرة قبيل رحيله، ذلك بأن للدولة وظائف بشرية لا علاقة للدين ولمؤسساته بها إلا فيما يتعلق بالتذكير بالقيم الإنسانية التي يبشّر بها الدين.

كان يحب الحياة. يحبها بكل طاقاته. كان يحبها له ولأولاده ولشعبه وللبشرية، لكنه كان حزيناً إذ رأى أرض البشر ومنها أرضنا ملأى بالشر وبالأسرار من جميع الأنواع. غير أن حزنه الأخير الذي قرأته بعيني وبمشاعري في اللقاء الأخير هو إحساسه بأنه في الطريق إلى النهاية. وداعاً أيها الإنسان الجميل. وداعاً أيها الصديق الحبيب. والوداع هذا لن يغيّبك عني وعن كثرة كبيرة من أصدقائك. ستبقى حياً فينا وفي الأجيال اللاحقة. ■

عظيماً من التاريخ العربي والإسلامي، مضافاً إليه ما حمله من ثقافة واسعة ومن عشق للأدب، قديمه وحديثه، العربي منه وغير العربي. وهكذا اكتملت الصورة. في آخر لقاء لي معه في المستشفى قبل أن ينتقل إلى العناية المركزة أصرّ على أن يقول لي من خلف كمامة الأوكسجين: "اسمع يا أبو أحمد ما أقوله لك. الحياة جميلة." وقلت له: "نعم إنها جميلة وتستحق أن نعيشها." فأردف: "نعم إنها تستحق أن نعيشها." غادر السيد هاني الحياة قبل الأوان.

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

فلسطين

دروس الماضي وتحديات الحاضر

واستراتيجيات المستقبل

١- فلسطين والفلسطينيون

تحرير

جميل هلال

١٧٧ صفحة ١٢ دولاراً